المآصر في بلاد الروم والاسلام

لجوائيل عمرة

— ٩ —

(ه) مآصر القاهرة

أشرنا غير مرّة في ما مضى من بحثنا هذا ، إلى أن كلاً من المآصر النهرية والبحرية اتخذت لصدّ أخطار الغزو الذي يقع بين حين وآخر على البلاد ، ولتنظيم سبل التجارة وتسهيل أمر استيفاء الضرائب والعشور ، ولكنها هاهنا في القاهرة لم تتخذ لهذه الأغراض ، بل نصبت لأمرٍ فريد غريب انفردت به دون ما سواها من المدن الراكبة سواحل البحار اللجة وضفاف الأنهار . وسأقصّ عليك من أخبار هذا المأصر الفريد ما وقفت عليه من الأنباء .

إن من جملة الخلجان الخمسة التي بظاهر القاهرة ، خليجاً[1] يعرف بـ « خليج فم الخور[2] » قال المقريزي إنهُ « يخرج الآن من بحر النيل ويصبّ في الخليج الناصري ليقوي جري الماء فيه ويغزره ، وكان قبل أن يحفر الخليج الناصري يعدّ خليج الذكر . . . »[3]

وكان هذا الخليج من متنزهات أهل القاهرة ، وأحد مواطن اللهو واللعب ، يتنزهون فيه بالمراكب للتنزه ، وكان أكثر روّاده من أهل القصف والبطالة ، « فظهر من المنكرات ما لم يعهد في مصر في وقت من الأوقات . . . فركب أهل الطلاعة وذوو البطالة في مراكب في نهار شهر رمضان ومعهم النساء الفواجر وبأيديهنّ المزاهر يضربن بها وتسمع أصواتهنّ ، ووجوههنّ مكشوفة وحولهنّ من الرجال معهنّ في المراكب لا يمنعون عنهنّ الأيدي ولا الأبصار ، ولا يخافون من أمير ولا مأمور شيئاً من أسباب الإنكار ، وتوقّع أهل الرقابة ما ينظر هذا الخطب من المعاقبة »[4].

وكان على خليج فم الخور قنطرة واحدة هي المسماة بقنطرة القصي[5] . قال المقريزي إن قنطرة القصي هذه « على خليج فم الخور وهو الذي يخرج من بحر النيل ويلتقي مع الخليج الناصري عند الدكة فيصيران خليجاً واحداً يصبّ في الخليج الكبير . كان موضعها جسراً يستند عليه الماء إذا بدت الزيادة إلى أن تكمل أربع عشرة ذراعاً فيفتح ويمرّ الماء فيه

(١) خليج ، « انظر الذيل رقم ١ » (٢) الخور ، « انظر الذيل رقم ٢ » (٣) خطط المقريزي (٣ : ٢٣٥) (٤) خطط المقريزي (٣ : ٢٣٣) (٥) انظر كلاماً مفصلاً على القصي في خطط المقريزي (٢ : ٢٠٨ — ٢٠٩ ، و ٣ : ١٩٦ — ٢٠٢ و ٤ : ٦٥ — ٦٦)

إلى الخليج الناصري وبركة الرطلي[1] » . . . وما زال موضع هذه القنطرة معدًّا إلى أن كانت وزارة الصاحب شمس الدين أبي الفرج عبد الله المقسي في أيام السلطان الملك الاشرف شعبان بن حسين ، فأنشأ بهذا المكان القنطرة فعرفت به ، واتصلت العمائر أيضاً بجانبي هذا الخليج من حيث يبتدئ إلى أن يلتقي مع الخليج الناصري ، ثم حرب أكثر ما عليه من العمائر والمساكن بعد سنة ست وثمانمائة . وكان للناس بهذا الخليج مع الخليج الناصري في أيام النيل مرور في المراكب للنزهة يخرجون فيه عن الحدّ بكثرة التهتك والتمتع بكلّ ما يلهي إلى أن ولي أمر الدولة بعد قتل الملك الاشرف شعبان بن حُسَين الاميران : برقوق وبركة فقام الشيخ محمّد المعروف بصائم الدهر فمنع المراكب من المرور بالمتفرجين في الخليج ، واستفتى شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني ، فكتب له بوجوب منعهم لكثرة ما ينتهك في المراكب من المحرمات ويتجاهر به من الفواحش والمنكرات ، فبرز مرسوم الاميرَيْن المذكورَيْن بمنع المراكب من الدخول إلى الخليج ، وركبت سلسلة على قنطرة المقسي هذه في شهر ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وسبعمائة ، فامتنعت المراكب بأسرها من عبور هذا الخليج إلاّ أن يكون فيها علّة أو ضياع ، فقلق الناس لذلك وشقّ عليهم . وقال الشهاب أحمد بن العطّار الدنيسري في ذلك :

حديث فم الخور المسلسل ساؤه ... بقنطرة المقسي قد سار في الخلق
ألا عجبوا من مطلق ومسلسل ... يكون اقد أوقعتم الماء في حمقي

لسلسلت[2] قنطرة المقسي تمسا ... قد جرى والنهر أضحى شاملا
وقال أهل طبنة في جمعهم ... قوموا بنا نقطع السلاسلا

ولم تزل مراكب النزهة ممتنعة من عبور الخليج إلى أن زالت دولة الظاهر برقوق في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، فأذن في دخولها وهي مستمرة إلى وقتنا هذا.» [3] .

وقد تطرّق السيوطي إلى هذه السلسلة حينما ساق الحوادث الغريبة الكائنة بمصر في ملّة الإسلام ، فقال : « في سنة إحدى وثمانين (وسبعمائة) رسم الأمير بركة . . . بأن يُجعل على قنطرة فم الخور سلسلة تمنع المراكب من الدخول وإلى بركة الرطلي. فقال بعض الشعراء في ذلك :

أطلقتُ دمعي على خليج ... منذ سلسلوه فراح مقفل
مَن رامَ من دهرنا عجبا ... فلينظر المطلق المسلسل [4]

(١) انظر بركة الرطلي في خطط المقريزي (٣ : ٢٦٣ — ٢٦٤) ، وفي بدائع الزهور (١ : ١٦٣ — ١٦٤) . (٢) في المطبوع « تسلست » وهو تحريف ظاهر (٣) خطط المقريزي (٣ : ٢٤٥ — ٢٤٩) . (٤) حسن المحاضرة (٢ : ١٦٣) ، المطبعة الشرقية (١٣٢٩ هـ) (٢ : ١٨٢) ، مطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣٢٩ هـ .